ثنائية المدينة والريف في احمد عبد المعطي الحجازي

الطيب كحيلش / طالب دكتوراه

تحت اشراف الاستاذ الدكتور فاطمة شعبان

جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر2 –

Medddja2016@gmail.com

ملخص –

برزت ثنائية المدينة والريف كثيرا في الشعر العربي الحديث،فتجلت في عديد الاشعار، من ابرزها ما ورد في شعر الشاعر المصري احمد عبد المعطي الحجازي، ريفي المولد و النشأة، هاجر الى المدينة مما ولد لديه صدمة حضارية في بادئ الامر جعلته يشعر بالضياع وفقدان الذات بين الأزقة وجدران المدينة، مابعث فيه الحنين الى الريف واعتناق ذكريات صباه خاصة في بداية شعره ، بدافع الهروب من المدينة وضوضائها، بجوها البائس ، وهو مادفعنا الى السعي وراء ابراز العلاقة بين هذه الثنائية المتقابلة في الشعر وفق رؤيته وتجربته الشعرية.

Résumé

-Le plus important d'entre eux est la poésie égyptienne du poète égyptien Ahmad Abd al Muti al Hijazi, originaire de la campagne et émigrée, ce qui lui a donné un choc culturel au début, ce qui l'a fait se sentir perdu et perdu dans les allées. Et les murs de la ville, transmettant la nostalgie à la campagne et embrassant les souvenirs de sa jeunesse, en particulier au début de sa poésie, motivés par l'évasion de la ville et de son visage désolé, misérable, qui nous ont amenés à mettre en lumière le rapport entre ces deux contrastes de poésie en fonction de sa vision et de son expérience poétique.

رغم ان المدينة بصمت في سجل الحضارة الانسانية منذ القدم وعرفتها التجمعات الطلائعية الاولى للانسان الا ان مفهومها يكاد يتشابك باختلاف تعاريفها وزوايا النظر اليها فمنهم "من تصور المدينة للقرية على افتراض ان هناك تدرجا مستمرا بين ماهو ريفي وما هو حضري "[1]

ولكن هذا الامتداد عرف تطورا ملحوظا فالمدينة عرفت استقرار أو ابقت تفاعلها مع الريف على مدى الحاجة اليه "فهناك من اطلق عليها بالمناطق الرافدة ومناطق النفوذ واحزمت التأثير و المناطق التابعة كما ترتبط حياة المدينة و انشطتها بما يحيط بها من مناطق"[2] و "مع تحكم المدينة في الأنشطة السياسية و الثقافية و الاجتماعية و اتساع رقعتها كثرت مفاهمها في المدينة حقيقة مادية مرئية اللاندسكيب يمكن ان نحددها باحساساتنا الخارجية و يمكن ان نتعرف على المدينة بمظهر مبانيها وكتلتها وطبيعة شوارعها ومؤسستها و مصانعها و كذلك بالبروفيل"[3] .

وجاء لفظ المدينة في القرآن مقرون بلفظ القرية في مواضع عديدة يقول تعالى {وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى...} (يس 20)

"يرجع لفظ المدينة في اللغة العربية الى مدن و مدن بالمكان أقام به وأورد الفيروز أبادي وابن منظور ان المدينة تعني الحصن . أما الزبيدي فيرجع أصل المدينة الى كلمة (دين) لأنها تتضمن معنى التملك، و أصل الكلمة كما ورد في معالم اللغة و الأحاديث الشريفة أصل عربي وليس آراميا أو عبريا"[4].

ولا اختلاف أن صورة المدينة في الشعر العربي ، ذات طرح معاصر رغم أن لها جذورا الا أن الحديث عنها ووضعها على يعدو أن يكون شذرات متناثرة لم ترسم المدينة كموضوع قيم ذات صيت.

---

[1]– حسين رشوان : المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري ص 43.

[2]– ابو عياش عبد الاله : أزمة المدينة العربية وكالة المطبوعات الكويت ط 1980ص53.

[3]– جمال حمدان : عالم الكتب ظ2ص09.

[4]– نورى العلوي : دراسات في تاريخ المدينة العربية الاسلامية . مجلة (اجتهاد ، بموت ع8 سنة 1990.

وقد تصدرت المدينة عديد القصائد و الدواوين لعديد الشعراء في العصر الحديث و المعاصر، كعبد المعطي الحجازي الذي أفرد لها ديوانا عنوانه "مدينة بلا قلب ".

و عبد المعطي الحجازي من الشعراء القلائل و الأوائل الذين اكتو بنار المدينة في بدايته الأولى فمنذ ولوجها شعر بالتيهان و التلاشي خاصة انه ريفي المولد و النشأة الأولى فقد رأى نور الحياة في قرية تلا بمحافظة المنوفية .

حيث كانت مدن مصر تشهد نزوحا ريفيا كبيرا نتيجة توافر فرص العمل وهي" تتضخم بفعل النزوح الريفيين اليها ، النزوح الريفي هو القوت الذي أدى و يؤدي الى نموها بشريا و اقتصاديا و عمرانيا ولو اتى ذلك بصورة غير مباشرة بالنسبة للجانبين الاقتصادي و العمراني[1].

"فالأرياف و البوادي على سبيل المثال أمكنة فقيرة بالتنوع البشري ، وفقيرة أيضا بما يثير فضول المرء لمعرفة سواه ، فالكل يعرف فيها الكل خلافا للمدينة التي تمتلئ بالمجاهيل البشرية لا الطبيعية"[2].

و الشاعر عبد المعطي الحجازي اصطدم بالوهلة الأولى بالمدينة " ومن الطبيعي ان يصطدم هذا الريفي الحساس بمجتمع المدينة وقد اصطدم بواقع مخالف لما تعود عليه في قريته من بساطة وتلقائية وفطرية ووضوح وهكذا لم يأنس الى هذا الواقع الجديد في لقائه الأول بقدر ماشعر بالغربة و القلق و الخوف و الانزعاج خاصة ان المدينة العربية المعاصرة بما شهدته من تغيرات اجتماعية و سياسية قد ساهمت هي الاخرى في اشاعة جو القلق و التوتر الذي عاشته الشاعر النازح من القرية[3]

فالبعد الريفي الغائر في شخصية الشاعر من وان لم يكن متجدرا فسرعان ما درجت المدينة هذا البعد و غمسته في فردوستها رغم ان المدينة لفظت الشاعر ورسمت فيه انتماءه الريفي و عملت على تهميشه كما لو كان ورما و جب اقتلاعه و التخلص منه ، ولأن الشاعر راى في بدايته الشعرية أن القرية و الريف هي المكان المناسب لانطلاقة بواكيره الشعرية بلا شك مما جعل صورة المدينة لديه صورة ضدية للقرية أو الريف ولأن الشاعر ذات نزعة رومانسية باعتباره ريفي المولد و النشأة .

صدم الحجازي من أول ما وطأت قدماه المدينة .. فيقول :

ياعم من أين الطريق؟
اين طريق {السيدة }
أيمن قليلا ثم أيسر يا بني
قال ولم ينظر إلى[4]

هكذا وجد الشاعر نفسه أول مرة في المدينة تائها حيث لا بد من السؤال عن الوجهة فحتى المجيب يرد في عجل و لا يبالي. فبدت في نظره "المدينة غابة للموت غابة للقضاء على الروح التي تشكل جو هو الإنسان و جوهر القيم الأخلاقية المثلى وجوهر التعامل الأفضل بين البشر".[5]

فقد تولد شعور الغربة و الاغتراب في المدينة في نفسية الحجازي خاصة أنه بدا وحيدا تائها في أزقتها حيث لا مؤنس و لا صديق يلجأ إليه. و تتعمق فيه صورة المدينة المتاهة فقد كاد يضيع فيها شوارعها، فيقول:

لا لن أعود ثانيا
لا لن أعود
لو كان في جيبي نقود
لا لن أعود ثانيا بلا نقود
يا قاهرة
يا قبابا متخمات قاعده
يا مئذانات ملحدة[1]

---

[1]– لويس ممفورد، **المدينة على مر العصور**، ت ابراهيم فتحي، مكتبة الانجلو المصرية، دط، 1964، ص97.

[2]– د صلاح صالح، **المدينة الضحلة–تثريبة المدينة في الرواية العربية–** مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب، 2014،ص32

[3]– سعيد الورقي، **الموقف من المدينة في الشعر العربي المعاصر**، دار المعرفة الجامعية، 1991، ص 18.

[4]– عبد المعطي الحجازي، **ديوان مدينة بلا قلب**، قصيدة كان لي قلب، ص18

[5]– محمد مفيد قميحة، **الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر**، منشورات دار الافاق الجديدة، ط1، بيروت،1981، ص359

لقد عانى الحجازي من صدمة المدينة و أحس أنه لا قيمة له بدون نقود في مدينة لا ترحم الغرباء و الفقراء. " حيث كانت المدينة تبدو كئيبة. قبيحة الوجه أمام الشاعر ترسف في أغلال العبودية وتمارس مع أهلها الظلم و الاستعباد. " [2]

وقد صور لنا الشاعر الناس في المدينة، على أنهم أشباح يمضون سراعا ولا يخشون الترام فيقول:

و الناس يمضون سراعا
لا يحفلون
أشباحهم تمضي تباعا
لا ينظرون
حتى اذا مر الترام بين الزحام
لا يفزعون[3]

تعكس تعايش الانسان المديني مع الآلة في توافق و انسجام فالترام رمز السرعة " فأبرز ما يمز المدينة الاحساس في التعامل الزمن و انعكاس فيها بعامل الزمن ، و انعكاس هذا العامل على الحياة نفسها و على العلاقة الناس بعضهم البعض"[4] ويقول:

شوارع المدينة الكبيرة
قيعان نـــــار
تجتر في الظهيـــــرة
ما شربته في الضحى من اللهيب
يا ويله من لم يصادف غير شمسها[5]

يبدو الشاعر بائسا متذمرا من جدران المدينة و شوارعها فقد اتخذ منها رمزا للقهر و صورة قاتمة سوداوية عن القاهرة و شوارعها فلا شئ يلوح في الأفق غير اللهيب و السياج و البناء ، كتل حجرية ضخمة لا للإنسانية فيها قاتلة للقيم و الروح النبيلة فالانسان الريفي يعيش في الطبيعة المفتوحة وكأن الجدران أجهزت على نفسه بتيهان روحي ووقوفه و جها لوجه أمام المدينة الكئيبة القاسية حيث شحن كل رموز المدينة بدلالات فيقول :

هذا أنا وهذه مدينتي
عند انتصاف الليل
رحابة الميدان و الجدران تل
تبين ثم تختفي وراء تل
وريقة في الريح ، دارت ثم حطت ثم ضاعت في الدروب[6]

أحس أنه تائه في دروب المدينة في مواجهة غير متكافئة، مدينة مترامية الأطراف و شخص تافه حقير ضائع فيها، شبه نفسه بالوريقة في صورة لتصغير حاله ومآل إليه في دروبها بين آلاف البشر المتزاحمة .

وزاوج الشاعر بين الضياع في المدينة و انتصاف الليل في صورة تعكس عمق التمزق، فهو ضياع وجودي، وضياع وجداني، فعندما "يحس ان لا احد يسمع أنينه و آهاته تتعمق تجربته الاغترابية، و تزداد حدة إحساسه بالوحدة مما يزيد من حدة صراعه مع الحياة و الآخر ومع نفسه، ومن ثم تزداد حدة انفعالاته نحاول من جديد أن يلتمس الحقيقة في عالم الضياع و الاغتراب و التمزق." [7]

---

[1]– عبد المعطي الحجازي، **المرجع السابق**، قصيدة الطريق الى السيدة، ص 19.

[2]– عز الدين اسماعيل، **الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهر الفنية والموضوعية**، دار العودة، بيروت، ط3، 1981، ص147.

[3]– **عبد المعطي الحجازي، المرجع السابق، ص19**

[4]– **عز الدين اسماعيل ، المرجع السابق، ص284**.

[5]– **عبد المعطي الحجازي، المرجع نفسه، ص24**.

[6]– **عبد المعطي الحجازي، المرجع السابق، ص99**

[7]– أ–د محمد المهادي بوطارن ، **الاغتراب في الشعر العربي الرومنسي**، دار الكتاب الحديث، دت، ص 51.

و أن يكسر حاجزا العزلة و الوحدة وذلك بعد أن و لجها وحيدا لا مأوى يأويه، و لا صديق يؤنسه، و لا عمل يسد به رمق جوعه، و لكن اتخاذه صداقة و رفقه خفف من وطأة المدينة و تمادى فيها بعد أن " وجد فيهم روح الشعب، و وجد فيهم خلاصه من القلق و الوحدة حيث منحوه الإرادة و الفرح و البقاء و هذا ما شجعه على الألفة و القبول." [1] فيقول :

و لكنني في المساء أبوح
أسيد على ردهات السكينة
و أفتح أبواب صدري
و أطلق طيرى
أناجي رياء المدينة. [2]

ولكن هذه الصدمة و التمرد الذي أبانه الشاعر تجاه المدينة ما انفك يزول حينما أدرك أن لا بد من التعايش مع المدينة فأكد الشاعر "أن التعبير قد مس كل شئ في حياتنا . ومادامت الأشياء تتغير، فلا مناص من أن تتغير الرؤيا تبعا لذلك و تنبثق القصيدة الجديدة." [3]

القرية عند الحجازي هي حاضنة ذكريات سعيدة وملعب صبا، فهي التي راى فيها نور الحياة، فألفة المكان طبعت على نفسية الشاعر راحة واستئناس، يتحلى بالفضائل ويتحاشى الرذائل، تطوقه الأخلاق الحميدة فيحمل في تعاملاته عاداته وتقاليده الفاضلة، حيث لا خوف يعتريه ولا شر يبديه، مجتمع ريفي كله طمأنينة وسكون. حيث يقول الحجازي:

هنا المدى لا يعرف الحراس
هنا انا حر
هنا الطيور تستطيع ان تطير
هنا النبات لا يزال اخضر كيوم كان
ولايزال يرضع السماء كيوم كان
هنا الحقيقة لا تعرف التلون المقيت. [4]

فالقرية من هذا هي عند الشاعر، صباه الماضي بلا رجعة وحنين اليه ترنما، حيث صفاء الكون والنفوس يتجلى في كل مكان، ومن جهة فانه يستأنس بها ، نظرا لما فيها من الفة المكان وراحة الروح وهدوء النفس، وهو مايظهر من خلال المقطع التالي:

وجاء المساء وكنت على الطريق الملتوي امشي
وقريتنا بحضن المغرب الشفقي
رؤى افق مخادع ثرة التلوين
والنقش تنام على مشارفها ظلال نخيل ومئذنة
تلوى ظلها في صفحة الترعة
رؤى مسحورة تمشي وكنت ارى عناق الزهر للزهرة
واسمع غمغمات الطير للطير
واصوات البهائم تختفي في مدخل القرية . [5]

فالشاعر صور لنا جمال القرية بريفها من خلال مقطوعة سردية مليئة بالشحنات الانفعالية "ان القرية هنا هي مجتمع البراءة والبساطة والصفاء". [6]

---

[1]- زهير عبيدات، ص 123 – 124م

[2]- **عبد المعطي الحجازي ، الديوان، ص118**

[3]- عبد المعطي الحجازي، **القصيدة الجديدة واوهام الحداثة**، مجلة ابداع، العدد 9، 1985، ص8.

[4]- **عبد المعطي الحجازي ، الديوان، ص7**

[5]- **عبد المعطي الحجازي ، الديوان، ص7**

[6]- الاخضر بركة، **الريف في الشعر العربي المعاصر**، دار الغرب، وهران ،2002، ص81.

والشاعر يصرح بارتباطه الوطيد بالريف "فالمكان الذي نحبه يرفض ان يبقى منغلقا بشكل دائم، انه يتوزع وكأنه يتوجه الى مختلف الاماكن دون صعوبة ويتحرك نحو ازمنة اخرى، وعلى مستوى الحلم والذاكرة"[1]،ففي عالم القرية الكل متجاوب يتبادل الاحساس والامان ومن شدة الهدوء على عكس المدينةان يسمع الشاعر غمغمات الطير للطير ، وان يرى عناق الزهر للزهر، رومنسية لا يؤتاه الا شاعر غاص في عمق حب قريته حتى تشرب الحميمية بين اشيائها وقوة الاتصال بين موجوداتها، ويقول في ذاك:

ولكم عذبتني وقت الغروب
لونه الجهم الخصيب
صمته سرب الطيور العائدة
والزروع الهاجدة
والثغاء المترامي من بعيد
لشياه راقدة. [2]

فالشاعر فضل العيش في كنف الريف حيث أصوات الطيور العائدة الصادحة بأعذب الألحان و صوت الشياه في سمفونية عذبة المقاطع و مشاهد يأبى الشاعر أن تفارق ذاكرته و كأن الشاعر أبى ان يفارقه ماضيه السعيد.

و لكن القرية في الحقبة الأخيرة لم تعد كما تركها الشعراء من قبل ، و إنما تسربت إليها من المدينة بعض المكتسبات التي غيرت من معالمها من إضاءة و أسواق و مؤسسات و شركات و مصانع مما ألحق الأذى ببعض القيم التي كانت سائدة إبان رحيلهم، و قرب البون الشاسع بين مفهومي القرية و المدينة. [3]

قائمة المصادر والمراجع

1- حسين رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري.
2- ابو عياش عبد الاله : أزمة المدينة العربية وكالة المطبوعات الكويت ط 1980.
3- جمال حمدان، عالم الكتب، ط2
4- نورى العلوني : دراسات في تاريخ المدينة العربية الإسلامية . مجلة (اجتهاد ، بموت ع8 سنة 1990.
5- لويس ممفورد، المدينة على مر العصور، ت ابراهيم فتحي، مكتبة الانجلو المصرية، دط، 1964.
6- د صلاح صالح، المدينة الضحلة-تثريب المدينة في الرواية العربية- مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب، 2014،
7- سعيد الورقي، الموقف من المدينة في الشعر العربي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 1991.
8- عبد المعطي الحجازي، ديوان مدينة بلا قلب، قصيدة كان لي قلب.
9- مُحَّد مفيد قميحة، الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر، منشورات دار الافاق الجديدة، ط1، بيروت،1981.
10- عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهر الفنية والموضوعية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981.
11- أ-د مُحَّد المهادي بوطارن ، الاغتراب في الشعر العربي الرومنسي، دار الكتاب الحديث، دت، ص 51.
12- زهير عبيدات صورة المدينة في الشعر العربي الحديث.دار الكندي الأردن2002
13- عبد المعطي الحجازي، القصيدة الجديدة واوهام الحداثة، مجلة ابداع، العدد 9، 1985.
14- الاخضر بركة، الريف في الشعر العربي المعاصر، دار الغرب، وهران .
15- غاستون بشلار، جمالية المكان.
16- عبد المعطي الحجازي، الديوان، قصيدة العام السادس عشر، ص7

---

[1]- غاستون بشلار، **جمالية المكان ، ص72**.

[2]- عبد المعطي الحجازي، **الديوان**، قصيدة العام السادس عشر، **ص7**

[3]- زهير عبيدات.صورة المدينة في الشعر العربي الحديث.دار الكندي.الأردن.2002.ص87.